مجلة علوم التربية

دورية مغربية فصلية متخصصة

أحمد أوزي
إسماعيل علوي
جميل حمداوي
رشيد جرموني
ديرار عبد السلام
ضرضاري التهامي
أخ العرب عبد الرحيم
عبد الله الخياري
لحسن عبود
رشيد كهوس
محمد بلهادي
محمد طمطم
المصطفى الحسناوي
عبد العزيز خلوفة

العدد الثالث والخمسون - أكتوبر 2012

سيكولوجية الطفل المتكفل به

أحمد أوزي
جامعة محمد الخامس - السويسي

مقدمة

موضوع التكفل موضوع له أبعاد متعددة، نفسية واجتماعية وبيولوجية وتربوية، وغيرها. ويصعب تناوله في بعد واحد من هذه الأبعاد، وإن كان الذي يتم، مع الأسف، هو معالجته من زاوية واحدة والتغاضي عن الجوانب الأخرى المرتبطة به. فالحديث يصعب عن هذه الشريحة من الأطفال المتكفل بهم بشكل عام، لأن كل واحد منهم يعيش وضعية خاصة يصعب معها التعميم على غيره.

ومن ناحية أخرى، فإن التكفل لا يخص في مشكلاته وتعقيداته الطفل فقط، وإنما يرتبط أيضا بأفراد الأسرة الجديدة التي تكفلت به وتلك التي ودعته. ولكون الموضوع بهذا التعقيد والاتساع، فإنه ظل وما يزال موضوعا مسكوتا عنه. نعيشه ونعيش تداعياته دون الرغبة في التحدث عنه. كما أن الدراسات النفسية - الاجتماعية والإكلينيكية لم تساهم بدورها بالقدر الكاف، الذي يساعد على كشف النقاب عن تركيبة شخصية الطفل المتكفل به، خاصة في البيئة العربية عموما، والمغربية خاصة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى سيكولوجية العلاقات التي تربطه بالمحيط المستقبل له، فضلا عن سيكولوجية أبويه الطبيعيين التي ظلت مغيبة عن الساحة السيكولوجية والاجتماعية من الناحية العلمية. فلا نعرف بالضبط نوع الخدوش أو الجروح النفسية التي أثرت على شخصية هؤلاء الذين ساهموا في رسم هذه الصورة العائلية التي تختلف عن الصورة الطبيعية للأسرة التي فاض علم النفس وعلم الاجتماع في وصفها.

ومن هنا أتوجه بالشكر والتقدير إلى الذين فكروا

في تنظيم هذا الملتقى كفضاء علمي ومعرفي لطرح النقاش وتبادل الآراء بين الباحثين، وبين بعض الأسر، التي خبرت هذه الظاهرة وعاشت بعض جوانبها، مما يمكن أن يفيد في تلمس أنجع الطرق وانسبها للتعامل مع هذا الموضوع من قبل كل الأطراف المعنية به. فلم يحدث والحق يقال أن حضرت أو شاركت في ندوة أو مؤتمر عالج قضايا نفسية أو اجتماعية حول هذا الموضوع الذي يسكن بيننا ونهمل الحديث عنه. ومن هنا، فإني أدعو الباحثين السيكو سوسيولوجيين إلى الانكباب على دراسة هذا الموضوع وإيفائه حقه، بهدف تأسيس سيكو سوسيولوجية كفيلة بفهم هذه الظاهرة فهما علميا صحيحا، لتحقيق أفضل تواصل مع الطفل المتكفل به وأسرته التي توفر له الحماية والرعاية اللازمة.

سيحاول هذا العرض المختصر الذي أقدمه أمامكم التطرق إلى ثلاثة جوانب أساسية في الموضوع، وهي:

أولا: سيكولوجية الطفل المتكفل به؛

ثانيا: سيكولوجية الأسرة المتكفلة؛

ثالثا: أسلوب التعامل مع الطفل المتكفل به ومساعدته على الكشف عن حقيقته؛

رابعا: خاتمة.

أولا: سيكولوجية الطفل المتكفل به

إن نفسية الطفل المتكفل به تختلف باختلاف المراحل العمرية التي تم خلالها التكفل به، مما يبين أننا أمام شخصيات مختلفة في تركيبتها النفسية والانفعالية والعاطفية والعقلية وغيرها من مظاهر النضج.

إن العديد من الدراسات تبين أن الأطفال المتكفل بهم يعيشون منذ فترة الحمل سلسلة من الصعوبات التي تجعلهم يبدءون حياتهم بمعاناة وصعوبات كثيرة. وتستمر هذه المعاناة والصعوبات بعد الولادة، حيث يعرفون أضراراً نفسية وجسمية وعاطفية. إنهم يدشنون الحياة بحمل صعب، فقد يتعرض بعضهم لعدم الحصول على التغذية المتوازنة من قبل أمهاتهم، بسبب غياب المتابعة الأبوية وبسبب الضغوط النفسية التي تنتاب الأم الحامل، وبسبب تعرض بعض الأمهات للإدمان على بعض المسكرات أو التعرض لبعض الأمراض المتناقلة. كما يمكن أن يتعرض بعضهن لعمليات ولادة صعبة، مما من شأنه بدون شك، التأثير في حياة المولود.

وتبعا لذلك، فإنه لا مندوحة لنا من طرح بعض التساؤلات حول خريطة الطريق التي اجتازها هؤلاء الأطفال، في الشهور والسنوات الأولى من حياتهم، والتي سوف تترك بصماتها وخدوشها على حياتهم المستقبلية.

- إلى أي حد حصل مثل هذا الطفل على التغذية الضرورية والمناسبة له؟

- ما نوع الانفعالات التي انتابته خلال تعرضه لوضع الهجران ؟

. كيف استقبل مشاعر الإحساس بالبرد والألم وهو ما يزال غضا؟

. كيف عاش لحظات فراق أمه في وقت ما يزال يحس فيها بعدم استقلال ذاته عن ذاتها؟

. أين وكيف تم هجره ؟ وما هي وقع لحظات تركه وهجره عليه؟ أكان ذلك بالليل أو النهار، وبهدوء أو بعنف، نائما أو مستيقظا...؟

. هل توافرت له العناية بعد العثور عليه أو إيداعه في مؤسسة ما ؟

. هل وجد من منحه العطف والحنان، وكيف ومن؟

. هل توافر له الطعام الكافي والمناسب؟

. هل تم تحقيق حاجته إلى النظافة خلال هذه الفترة؟

. هل خضع هذا الطفل للإهمال العاطفي أم أنه خضع للضرب والجرح وتم تقييده وربطه ؟

. كم المدة التي قضاها في دار الأيتام؟ أياما أم شهورا أم سنوات؟

. كيف استقبل هذا الطفل لقاءه الأول للأبوين الجديدين اللذين أقبلا على التكفل به؟

. هل كان لقاء غريبا ومهددا أم مطمئنا؟

إنها أسئلة كثيرة تتناسل يمكن طرحها بصدد هذه الدراما الإنسانية التي تترك أحداثُها ووقائعُها، كما قلنا من قبل، بصماتها على شخصية الطفل، بكيفية شعورية أو لا شعورية.

ومن هنا، فإن المقارنة بين طفل متكفل به وطفل آخر خضع للعناية التامة في الشهور الأولى يمكن أن يبرز الفرق بينهما في العديد من مظاهر النمو النفسي والجسمي والحركي. والواقع أنه، يتوجب عدم مقارنة الطفل المتكفل به بغيره، وإنما مقارنته، في الوقت الحالي بعد التكفل به بمدة زمنية معينة، بوضعه السابق عند الشروع بالتكفل به.

إن أطباء الأطفال وكل المتدخلين الصحيين، وكذلك الأهل والأقارب والأبوان الجديدان كثيرا ما يقومون بمقارنة منحنى النمو والسن لدى الأطفال المتكفل بهم، وهم كثيرا ما يدركون الفرق عادة. لذلك فإن الطفل المتكفل به خلال السنة الأولى من حياته أو ما بعدها، كثيرا ما يحرم والديه من النوم ويجعلهم يعيشون ليالي بيضاء وصعبة، لأنه يرفض النوم، ويتعرض لمخاوف الليل ويعيش كوابيس ترعبه وتخيفه. كما قد يعرف ظاهرة التبول اللاإرادي التي تعبر عن أكثر من خطاب.

إن طبيعة نوم الطفل كثيرا ما تعكس صحته الجسمية وحالته الانفعالية؛ إذ خلال الليل يقوم الدماغ بتنظيف الوجدان من التعب ومن الانفعالات اليومية المضطربة.

إن الطفل المتكفل به يقوم خلال النهار بالعديد من الأعمال التي تعوضه ما كان

ينقصه من قبل. فقد ينهمك في تعلم لغة جديدة أو اكتشاف ألوان وروائح لا عهد له بها أو يدخل في علاقات عاطفية مع أفراد جدد أصبحوا في حياته. ومن الطبيعي أن هذه الأحداث والوقائع الجديدة في حياته، إذا أضيفت إلى أحداث حياته السابقة، فإنه من الطبيعي ألا يستطيع السيطرة على ذاته خلال النوم أثناء الليل.

وإذا كان النمو الجسمي والانفعالي والاجتماعي والعقلي لا يسير دائما على شكل خط مستقيم بالنسبة لجميع الأطفال، فإن هذا الأمر يصدق أكثر بالنسبة للمتكفل بهم. فقد يكون نموهم مستقرا أحيانا وفجأة يغدو سريعا. فيبدءون في المشي والكلام ومعالجة مختلف الأشياء بمهارة بعد أن كانوا عاجزين عن القيام بذلك، فلا ينبغي للآباء القلق بصدد هذه الظاهرة. كما يمكن لبعض الأطفال المرور بلحظات النكوص في سلوكهم، فذلك ليس سوى القيام بخطوات إلى الوراء من أجل القفز إلى الأمام.

كما يلاحظ أن معظم الأطفال المتكفل بهم، صغارا كانوا أو كبارا، لديهم حساسية مفرطة تجاه كل المواقف التي يدركون أنها تشكل بشكل من الأشكال مواقف تهدد حياتهم بالرفض أو الهجران. ومن هنا نجد أن معظم أحلامهم التي تتكرر تبين أن أحد أقربائهم لم يأت لأخذهم من المدرسة بعد انتهاء الدراسة. كما أنهم يتأثرون بمختلف أشكال النقد سواء كان لوما أو بناء، إذ يعتبرونه نوعا من الرفض الذي يهدد حياتهم ووجودهم.

ولما كان جميع الناس يتصورون مستقبلهم انطلاقا من ماضيهم، فإن الشخص الذي خدع في علاقات عاطفية كثيرة سيعاني صعوبات في الإيمان بحب جديد والالتزام الصادق به. لهذا فالطفل المتكفل به قد يعاني من صعوبات وضع الثقة في الحب، فهو لا يرغب في الارتباط مخافة الإصابة بالألم، الشيء الذي لا يحمسه لتكوين علاقات عاطفية دائمة. إنه يفضل أن ينفصل ويبتعد عوض أن يحدث له ذلك يوما ما.

ولشدة خوف مثل هذا الطفل من الهجران فإن الرغبة في الحماية تظهر لديه في شكل أسئلة دائمة ومستمرة عن الوقت الذي سيأتي فيه أحد أقربائه لأخذه من المدرسة أو الروض مخافة نسيانه، أو تجد لديه رغبة ملحة في رؤية أفراد الأسرة مجتمعين دائما في نفس الغرفة أو في نفس السيارة... ومثل هذه الحاجات يمكن أن تستمر لديه في الظهور لعدة شهور أو لعدة سنوات، إلى أن يؤمن مكانه وموقعه في الوسط الأسري الجديد. ومصدر هذه الحاجة أن الطفل الذي تم التكفل به يكون قد عاش على الأقل في مكانين: المكان الأول مع أمه البيولوجية، ثم المكان أو الوسط الثاني البديل. ففي حياته القصيرة مر عليه انتزاعه من وسطين، وهاهو الآن يعيش في وسط ثالث. إذا كان الماضي ضمان للمستقبل، فإنه سيعتبر أن ما هو عليه حاليا ليس سوى وضع مؤقت، مثل غيره من الأوضاع التي

عاشها من قبل. ولأجل ذلك نجد أن العديد من هؤلاء الأطفال يمطرون آباءهم الجدد بالأسئلة التي تسعى إلى التأكد من حبهم لهم. كما أنهم يعيشون نوعا من الهلع والفزع كلما تم لومهم أو مخاصمتهم، ولو كان ذلك لسبب بسيط. وحتى يستطيع الآباء الجدد إكساب أطفالهم الثقة في أنفسهم وتأكيد حبهم لهم، فإن عليهم أن يشعروهم بالحب غير المشروط وترسيخ عادات مختلفة توطن الطفل وتجدره في بيئته الجديدة. فعليهم تبعا إلى ذلك ألا يكثروا من التغيير والتبديل في الأمكنة والأشياء، لأن في ذلك قلق وخوف الطفل المتكفل به، لأن لديه الشعور والإحساس بعدم دوام أي شيء. فعليهم أن يغيروا لديه هذه النظرة بالتدريج.

ثانيا: سيكولوجية الأسرة المتكفلة بالطفل

دوافع التكفل:

قد يتبادر إلى ذهننا ونحن نتحدث عن الأبوين الراغبين في التكفل سؤال، ربما قد يتجاوز مجال علم النفس والتحليل النفسي، وهذا السؤال هو: لماذا يرغب الآباء اليوم في إنجاب طفل، خارج السلوك الجنسي؟ هذا في الوقت الذي نعرف فيه بأن إنجاب الطفل في المجتمع الحديث يختلف عن إنجابه في المجتمعات التقليدية التي كان الطفل فيها يشكل أداة عاملة. أما اليوم فالطفل مكلف، إن الرغبة في إنجاب طفل ليس دائما رغبة واضحة ومعقلنة. قد تكون إجابة التحليل النفسي أن هذه الرغبة تسكن الإنسان وهي بشكل من الأشكال تعتبر عملية إعلاء أو تصعيد (Sublimation) يتوخى أو يأمل منها بقاءه واستمراره وعدم الخضوع للموت (اللي خلف مماتش)، فصراع الفرد ضد الموت يجعل هوام الطفل يسكنه بشكل مبكر وخاصة، الإناث.

ثم أليس الرغبة في التكفل ليست سوى نوع من» إضافة قيمة اجتماعية» أو تقليد لما قام به أحد أصدقائنا أو أقربائنا؟ أم أن دافع التكفل مصدره الألم والمعاناة النفسية الناتجة عن العقم غير المقبول في بعض الأوساط الاجتماعية، إن لم نقل كلها، فيكون التكفل مسكن لمشاعر الحرمان والنقص الذي يشعر به المتكفل؟ أم أن سبب التكفل قد يعود إلى عوامل لاشعورية تسبب للشخص المُتكفل بالطفل نوعا من السعادة التي تغمره عندما يكون هناك طفل إلى جانبه ؟ وهل التكفل نوع من التحايل على الرغبة في بقاء استمرار أحد الزوجين إذا غاب وتوارى عن الأنظار، أي الخوف من فقدان الزوج أو الزوجة؟

وماذا بالنسبة للأسر التي تتكفل بطفل ولديها أبناؤها من الأطفال، ما هو وقع الطفل الجديد الدخيل عليهم، ألا يشعرون بأن وجودهم لا يقنع والديهم؟ ثم ألا يشعر هؤلاء الأبناء بأنهم بحاجة إلى شجاعة كبيرة لتقبل هذا الوافد الجديد عليهم؟ ألا تنشأ مشاكل بينهم وبين الطفل الجديد الذي

رشحه الأبوان ليغدو أخا جديدا لهم؟ ثم ألا يشعر الأبناء بأنه لا يصلهم نفس المقدار العاطفي الممنوح للطفل المتكفل به؟

هل يدرك المقبلون على التكفل مخاطر ودلالة اقتلاع الطفل الذي يرغبون في التكفل به من وسطه السابق الذي يعيش فيه، وتأثير ذلك على عواطفه وحياته المستقبلية، خاصة وأن شخصيته لا تقوى بعد على تحمل مثل هذه الصدمات؟

وأخيرا لا آخرا، ألا تؤدي عواصف الحب والحنان والشفقة التي يُمطر بها الطفل المتكفل به في أيامه الأولى، عند استقباله إلى تقييده وتطويقه، مع ما يمكن أن يترتب على مثل هذا السلوك من شعور الطرفين (المتكفّل والمتكفَل) بتضييق الخناق عليه؟

ثم ما هي نوع المشاعر التي تخالج الأبوين المتكفلان تجاه أبوي الطفل الطبيعيين، أهي مشاعر الذنب؟

ثم ما هي الأسباب الكامنة وراء إخفاء بعض القائمين بالتكفل أصل الطفل وحقيقته؟ ألا يعود ذلك إلى الخوف من إفساد رغبتهم الدفينة في وجود وامتلاك طفل يكون بجانبهم يحبونه ويلبي رغبتهم اللاشعورية المرتبطة بماضيهم ووقائعهم الدفينة ؟

إن هناك العديد من الأسئلة الأخرى التي يمكن طرحها للبحث عن دوافع التكفل خارج الإجابات الجاهزة عادة، ولا يسمح الوقت هنا لطرحها، وإن كان في حقيقة الأمر تحليل الأسباب الكامنة وراء الرغبة في التكفل ودوافعها الحقيقية لها تأثير على حياة الطفل المتكفل به وعلى مستقبله.

ثالثا: أسلوب التعامل مع الطفل المتكفل به ومساعدته على الكشف عن حقيقته، ساعة الحقيقة: معرفة الطفل لأصوله:

قد يبدو إخبار الطفل المتكفل به بحقيقته شيئا متناقضا بالنسبة إلى الأبوين اللذين لم يحصل لهما أن كانا طفلين متكفل بهما، فهو في نظرهما يبدو أمر معاكس لراحة الطفل. إنهما يتمنيان أن ينسى الطفل كل شيء، وألا يعرف شيئا عن ماضيه، لاعتقادهما أن الكائن البشري لا « يعرف » عن تاريخه إلا ما رُوي له أو ما يتذكره ذهنيا. لكن اللاشعور يعرف ! وإذا لم يُروى له تاريخه بكلمات، فإن الحياة الرمزية للطفل تُؤسّسُ على قواعد غير متينة وغير أمنة. إن لدى الطفل دوما حدس لتاريخه. فإذا قيلت له الحقيقة، فهي سوف تساهم في بناء شخصيته بناء سليماً. والكلمات التي تُقال له ـ خصوصا إذا صدرت من أبويه المتكفلان به، وهما الشخصان اللذان يرعيانه ـ فرحا كبيرا، هذه الكلمات الصادقة الحقيقية هي على العكس مما يُظن تُشكل دعما للحب الإنساني والرغبة في هذا الطفل، وهي رغبة لا تحرمه من أبويه الطبيعيين، وكذا من رغبة هذين الأبوين الجديدين. في هذه الحالة فإن الجميع

متأكد بأن اختيارهم لبعضهم بعضا اختيار صحيح، فهم سيتبادلون الغبطة والسرور، لأنهم تعارفوا في يوم من الأيام، وهو يوم يُحدد ويُعلن تاريخه ومكانه، كما يُعلن تاريخ الولادة الأساسي الشرعي، فيكون للطفل بدل عيد ميلاد واحد، عيدان يحتفل بهما ويرمزان لشخصيته.

أما إذا كان الطفل في المؤسسة التي آوته ويسمح له سنه بفهم واستيعاب وضعه، فإنه ينبغي أن يُخبر بحقيقته بعد القيام بتهيئه لذلك. وعلى الطفل أن يقرر ما إذا كان يقبل من يتكفل به أم لا. ومن المهم أيضا أن يُقال للطفل ما ينتظره منذ البداية. وعليه أن يقرر موافقته أو رفضه، إذ له الحق في ذلك كما للمُتكفل حق اختيار الطفل الذي يأمل التكفل به.

إن تساؤل الأطفال والبحث عن فهم أصولهم يختلف باختلاف أعمارهم العقلية والعاطفية. والوصول إلى هذه الحقيقة يعتبر مطلبا حيويا لدى أغلبهم. مثلهم في ذلك مثل صغار سمك الصمون الذين لديهم الاستعداد لكسر المسابح وصرف طاقتهم الحيوية للعودة إلى المنبع الأول الذي انطلقوا منه. هذا وإن كان كثير من آباء التكفل يعتبرون ذلك نوع من الإنكار أو الجحود في علاقة التكفل. فهم يعتبرون ذلك إخفاق للحب المتبادل بينهم وبين الطفل. إنهم يعتقدون أنهم سوف يفقدون شيئا إذا ساعدوا الطفل على العودة إلى موطنه الأصلي ومعرفته. وبعض الآباء يقومون بذلك ليجنبوا الطفل الشعور بالآلام أو الإخفاق في الوصول إلى الحقيقة. ومع ذلك، فإن على الآباء الاستعداد لقبول هذه الواقعة. فإذا اعتبر الآباء البيولوجيون طرفا في حياتهم كأشخاص لهم دلالة ومعنى، فإنهم يتجنبون إيقاظ غريزة « الصمون الصغير» ويعيشونها بكيفية بناءة. والرفض الشرعي لهذا البحث عن الأصول يمكن أن يعرض طبيعة العلاقة بين الأب والطفل إلى الخطر[1].

إن العديد من علماء النفس والمعالجين النفسيين يدعمون فكرة إخبار الطفل بأصوله وحقيقة أمره. وعلى سبيل المثال فإن فينيكوت (D. W. WINNICOT) يقول في ذلك: « أريد أن أقدم دعمي وسندي للفكرة العامة المقبولة القائلة بأن كل طفل مُتكفل به ينبغي أن يعرف ذلك في وقت مبكر. وينبغي أن يتم ذلك من قبل الأبوين اللذين يتكفلان به. ليس ما يدعوني إلى ذلك مجرد رأي أو فكرة أقترحها، وإنما هناك جملة من الأسباب المعقولة تدعو إلى ذلك.

أهمها أن الأطفال ينتهون إلى اكتشاف الحقيقة بطريقة أو بأخرى. لقد لاحظت لدى الولد أو البنت العاديين أن سبب التغيير والوقوع في مشكل يتعلق بهذا الاكتشاف الذي يصدر من ملاحظة يسمعها في طريقه إلى المدرسة من طفل الجيران الذي يردد ما

1 - http://www.apaer.org/050_psychologie_enfant_adopte.html

سمعه من كلام خلال حديث الراشدين أو الكبار، الذين لا يدركون بأن كلامهم يُسمع من قبل أطفالهم.

علينا أن نتذكر بأن الأطفال يعيشون وقائع الحياة كاملة وأنهم مدعوون إلى أن يصادفوا في حياتهم الحقد مثلما أنهم معرضين للسرور واللعب. وفي لحظة من لحظات غير مقصودة تنطلق الكلمات وتنفلت من عُقالها محمّلة بسوء: « لست ابن والديك» !...

في بعض الأحيان لا تُقال الحقيقة للطفل المتطفل به والكل متفق على ذلك. غير أن ما يحدث مع ذلك، هو أن هذا الطفل كثيرا ما ينتهي به الأمر إلى اكتشاف الحقيقة. والأب أو الأم أو الأسرة التي تتطفل به هي الأجدر والأولى بإخباره بالحقيقة، بمجرد ما تسمح الفرصة بذلك، وليس شخص آخر.

والسؤال الأساسي الذي يطرح نفسه هنا، هو كيف يمكن القيام بهذه المهمة الصعبة في نظر البعض؟ من الصعب أن نقدم طريقة واحدة مناسبة، على شكل وصفة جاهزة، بإمكان كل واحد تطبيقها. فكل واحد يمكنه البحث عن أنسب الطرق وأكثرها ملاءمة. يخبر بعض الآباء أنهم يسلكون إلى ذلك طريقة السرد القصصي قبل نوم الطفل ليلا، حيث يتم اختيار قصص وثيقة الصلة بالموضوع تُدمج بالتدريج في كل ليلة جانبا من الموضوع، بحيث تُدمج القصة بكيفية أو بأخرى، موضوع طفل حيوان أو بشر مفقود وعثر عليه. إن جميع الأطفال يحبون مثل هذه القصص. يكفي أن نسردها بكيفية مشوقة وحية. وقد تأتي الفرصة شيئا فشيئا لربط العلاقة بين الطفل الذي تتبناه الأسرة وبين أحوال أو حال الطفل بطل القصة التي تروى له. بل إننا كثيرا ما نجد أن الطفل الذي نقص عليه مختلف القصص يتوحد مع أبطالها، كما تبين لنا استجابات الأطفال الذين نخضعهم لاختبارات تفهم الموضوع.

والسؤال الذي يُثار هنا أيضا، هو: متى ينبغي التدخل لإخبار الطفل بحقيقته؟ إنه ليس هناك ظرف خاص ومحدد. فقد تضيف في لحظة من لحظات القصة ملاحظة معينة، مثل « إن هذا شبيه بحالة أحمد أو فاطمة «...

وعلى كل حال، فإنه ليس الأبوان هما فقط، الشخصان اللذان ينجبان الطفل، ومن ثم يُعرف باسمهما، بل كذلك الأبوان اللذان يعتنيان به ويقدمان له العناية والمحبة الشخصية اللازمة لنموه ونضجه.

إن المادة (18) من الاتفاقية الدولية لحقوق الطفل، التي وافقت عليها جميع الدول الأعضاء (191 دولة) في الجمعية العامة للأمم المتحدة بتاريخ 20 نوفمبر 1989 تنص على أن تتعهد الدول الأطراف باحترام حق الطفل في الحفاظ على هويته، بما في ذلك جنسيته واسمه، وصلاته العائلية، على النحو الذي يقره القانون، وذلك دون تدخل شرعي». (القاسمي، 2012).

وفضلا عن شرعية احتفاظ الطفل بهويته التي تعني ضمن ما تعنيه عدم تغيير اسمه الأصلي، فإن عليهما عدم إخفاء لاحقا

أنهم تكفلوا به. وكذا عدم إخفاء المكان الذي التقوا فيه وتم اختياره. كما أن عليهما التحدث إليه عن أبويه الأصليين حديثا إيجابيا وأنه ثمرة حب ولأسباب خارجة عن إرادتهما لم يستطيعا الاحتفاظ به وتأمين تربيته وعيشه. لما في ذلك من قيمة وجودية للطفل.

خلاصة

إن مجيء الطفل الجديد، الذي يتم التكفل به، إلى الأسرة، يحدث تغييرا كبيرا في المناخ النفسي والاجتماعي السائد بين أفرادها. فهو يتطلب فترة زمنية للتكيف معه، قصد اكتشاف هذا الشخص الجديد والتعامل معه. فإذا كانت مدة الحمل تهيؤ الأبوين لاستقبال الطفل البيولوجي، فإن التكفل كثيرا ما لا يهيأ الأبوين بالقدر الكاف، لاستقبال الطفل المتكفل به، مما يتطلب منهما تغييرا جذريا في شخصيتهما وأساليب سلوكهما للتوافق مع هذا الحدث الجديد.

ومن هنا، فإن الأبوين اللذين لم يأنسا في نفسهما هذه القدرة التكيفية، فمن الأفضل عدم زعزعت الطفل في المؤسسة التي آوته.

إن الأطفال الذين نشئوا في المؤسسات ولم يحصلوا على علاقات أسرية مع غيرهم لهم مع ذلك حظ العيش في مكان مع أطفال آخرين. إنهم لم يعرفوا أبويهم البيولوجيين الحقيقيين، ولكنهم جاهزون ليحبوا ويرتبطوا بمن يحبهم، شريطة أن يستقبلوا من قبلهم بحرارة ودفء إنسانيين، أي في مركز حيوي ونشط يقبلهم على ما هم عليه من وضع ويحترم ماضيهم. كما يمكن للأطفال المتكفل بهم أن يحسوا بنوع من الغيظ تجاه الآباء الذين يتكفلون بهم فيجعلونهم يتحملون مسؤولية الآباء الذين تخلوا عنهم. فهم يكافئون الآباء على تجارب النضج التي عاشوها مع غيرهم من الآباء أو المرضعات.

علينا في نهاية هذا العرض الإشارة إلى أن كل شخص يمر أو يعيش هواما أو تخييلا خلال مرحلة المراهقة، يقوده ذلك إلى الاعتقاد بأنه كان طفلا ضائعا وتم العثور عليه. وليست اللعبة السيئة التي يلعبها بعض الآباء مع أبنائهم عندما يريدون إغاظتهم بقولهم «إننا لسنا أبواك، وإنما وجدناك في سلة الزبال، سوى تعبيرا يكشف عن هذا الهوام، ولو كان بطريقة غير مقصودة، فهو هوام يسكن كل واحد منا حسب ما يزعمه التحليل النفسي (S. Lebovici –M. Soulé)). ومن هنا، فإنه لا ينبغي والحال هذه عدم ربط هذا التخييل بحقيقة الطفل وواقعه، ومن ثمة إخباره بكيفية مناسبة تتفق ومداركه في فهم واقعه عوض الوصول إليه بطريقة لا تؤكد لأفراد أسرته الجديدة نواياهم الحسنة وصدقهم في تنشئته على الصدق والصراحة المتبادلة التي هي عنوان بناء الشخصية السوية.

وعلينا مواجهة حقيقة الأطفال المتكفل بهم ومساعدتهم على تحقيق نضج شخصيتهم وإحاطتهم بالرعاية الإنسانية التي يتطلبها ذلك، وعدم النظر إليهم نظرة الشفقة والرحمة بسبب وضعهم الاجتماعي

المختلف، وإنما احترام شخصيتهم وتقديرها في ذاتها، مما سيحول آنئذ الشفقة والرحمة الممنوحة إليهم إلى المحبة والتقدير الطبيعيين اللذين يحتاج إليهما كل طفل للنمو السوي.

من الأهمية بمكان أن نذكر في النهاية بأن لوسائل الإعلام بصوره المرئية والمسموعة والمقروءة دور كبير في التحسيس والتوعية الثقافية حول طبيعة شخصية هذه الشريحة الاجتماعية من الأطفال وحاجاتها الأساسية للنمو والنضج السوي. كما أن لوسائل الإعلام في المجتمعات الإسلامية مسؤولية إشاعة ثقافة التكافل الإسلامي وفق ما تؤكده المبادئ الدينية والقيم الإنسانية والمواثيق الدولية التي تنص بأن «الطفل، كي تترعرع شخصيته بشكل متكامل ومتناسق، ينبغي أن ينشأ في بيئة أسرية في جو من السعادة والمحبة والتفاهم». مما يفرض المحافظة على حياة الإنسان أفرادا وجماعات، صغارا وكبارا.

إن على وسائل الإعلام دور التأكيد على أهمية التخطيط العلمي الموجه إلى الناشئة عموما، العاديين منهم أو ذوي الاحتياجات الخاصة، مما ينبغي معه عدم تغييب التربية الأسرية والتربية الوالدية عن برامجها ورسائلها الإعلامية. فالأطفال هم ثروة كل مجتمع ومستقبله، لذلك يتوجب تربيتهم على أسس تنبني على مرتكزات كفيلة بجعلهم مقتدرين قادرين على التأثير على محيطهم بالفاعلية المطلوبة. ولا يفوتنا هنا التنويه بأهمية مؤسسات المجتمع المدني المختصة في الرعاية الاجتماعية والنفسية ودورها في تحمل أعباء التنشئة الاجتماعية والتربية والتعليم عبر أعمالها التطوعية، لضمان وتلبية متطلبات العيش الكريم للأطفال المتخلى عنهم. فهذه المؤسسات تشكل بحق سداً قوياً ومنيعاً يحول دون تشرد وانحراف وضياع نسبة هامة من هؤلاء الأطفال المتخلى عنهم، الذين يمكن أن يصبحوا بغير رعايتهم والاهتمام بهم، وقوداً للعنف الذي يهدد السلم والأمن الاجتماعي.

المراجع

● المملكة المغربية، وزارة التربية الوطنية وسلسلة المعرفة للجميع، 2012، أشغال المناظرة المتوسطية الأولى الأطفال في وضعية صعبة وأطفال الهجرة السرية، معهد سيفيروأوشوا - طنجة، 21 - 23 أكتوبر.

●فرانسواز دولتو، 2019، طرق التربية وحقائق التحليل النفسي، ترجمة د. ماري شهرستان، دار نوافذ للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، سورية.

● المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة، 2000، تعليم المشردين وتدريبهم مهنيا، منشورات - إسيسكو..

● المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة،2009، استراتيجية التكافل الثقافي لخدمة قضايا المسلمين التنموية والحضارية، منشورات - إسيسكو..

● Françoise Dolto(1979). Séminaire de psychanalyse d'enfants, Seuil, Paris.

● S. Lebovici. M. Soulé (1972). La connaissance de l'enfant par la psychanalyse, P.U F, Paris.

●D. W. Winnicot (1971). L'enfant et sa famille, Petite bibliothèque Payot, Paris.

http://www.apaer.org/050_psychologie_enfant_adopte.html